الخـــادم

للكاتب العظيم سيمونوف

بقلم الأديب نصرى عطاالله سوس

— ١ —

عاد جيرازيم إلى موسكو حين كان يتعذر الحصول على عمل فيها ، وذلك قبل عيد الميلاد بأيام قلائل . وفى هذه الفترة كان كل عامل يتمسك بعمله مهما كان حقيراً ، طمعاً فى الحصول على هدية من مخدومه . وهكذا قضى الشاب الفلاح ثلاثة أسابيع دائباً فى البحث عن مهنة ولكنه لم يوفق

وكان يعيش مع أقاربه وأصدقائه الذين نزحوا من قريته. ولم يكن فى فقر مدقع، ولكنه كان يغتم لرؤية شاب قوى مثله يحيا بغير عمل

وقد عاش جيرازيم فى موسكو منذ حداثته . وعند ما كان طفلاً كان يشتغل بغسل الأوانى فى معمل من معامل البيرة ، ثم اشتغل بعد ذلك خادماً فى أحد المنازل . وفى السنتين الأخيرتين كان يعاون أحد التجار ، ولو لا أنه دعى إلى قريته لسبب يتعلق بالخدمة العسكرية لبقى حيث كان الى الآن. ولسبب ما لم يقبل جيرازيم جندياً. ولما لم يكن معتاداً حياة الريف فقد بدت القرية لعينيه فى حلة من الكآبة ، وصمم على الرجوع إلى موسكو مهما كانت النتائج

وكل دقيقة تمر كانت تزيد ملله من جوب الطرقات فى فراغ وبطالة . ولم يترك جيرازيم أى سبيل للعمل إلا طرقها . ولقد ضايق جميع معارفه بالحافه ، وأحياناً كان يتصدى للمارة ويسألهم إذا كانوا يعرفون سبيلاً إلى عمل خال

ولم يعد يحتمل جيرازيم أن يكون عالة على الناس . وقد أصبح وجوده ينيط بعض مضيفيه . وتعرض بعض الخدم الذين كان ينزل عليهم لتأنيب مخدوميهم إياه بسببه . لقد كان فى حيرة تامة لا يدرى ماذا يفعل ، وأحياناً كان يجوب الطرقات النهار كله دون أن يتناول طعاماً ...

— ٢ —

فى أحد الأيام ذهب جيرازيم إلى صديق له من أبناء قريته ، يعيش على حدود موسكو . وكان هذا الصديق حوذياً عند رجل يدعى شاروف ، وقد مضى عليه أعوام كثيرة فى خدمته شاروف ، وقد أفلح فى أن يستحوذ على محبة سيده فأصبح يأمنه على كل شىء ويبدى له دلائل الرضا . ولعل لسانه الفتيق هو الذى كسب له ثقة سيده فقد كان يشي بكل الخدم ، وكان شاروف يقدره من أجل ذلك

وتقدم جيرازيم وحياه؛ واستقبل الحوذى صديقه استقبالاً مناسباً وقدم إليه شاياً وبعض الطعام ثم سأله عما يفعله فأجابه :

— فى أسوأ الأحوال يا يجور . إنى أعيش بدون عمل منذ أسابيع

— ألم تسأل مخدومك القديم أن يستعيدك إليه؟

— لقد سألته

— أو لم يقبل ؟

— هناك من حل محلى

— آه ... هذا هو السبب . تلك هى خطتكم أيها الشبان . تخدمون رؤساءكم حيثما اتفق ، فاذا تركتم مهنتكم تكونون قد سددتم طريق الرجوع إليها بالأوحال . ألا يجب أن تقوموا بواجباتكم بحيث تنالون التقدير الحسن ، فاذا رجعتم إلى مخدوميكم لا يهملونكم — بل يخرجون من حل محلكم ...

— وكيف يكون ذلك ؟ إنك لا تجد مخدومين على هذه الشاكلة فى هذه الأيام كما أننا لسنا بملائكة !

— وما فائدة تبديد الكلام ؟ ! إنى أريد أن أحدثك عن نفسى : إذا حدث أنى تركت عملى لسبب من الأسباب ورجعت إلى منزلى ، فالسيد شاروف يقبلنى عندما أرجع إليه ويكون سعيداً بقبولى

وجلس جيرازيم محزوناً . لقد لاحظ أن صديقه كان يباهى بنفسه ، ورأى أن يساير فقال :

— إنى أعرف ذلك ولكن من العسير وجود رجل مثلك يابجور . ولو لم تكن من أجود الخدم ما أبقاك سيدك فى خدمته اثنى عشر عاما

فابتسم بجور لأنه كان يحب المدح وقال :

— ذلك هو الواقع . لو أنك اتبعت نظامى فى الحياة والعمل ما وجدت نفسك عاطلا شهرا بعد أشهر

ونادى شاروف حوذيه فخرج وهو يقول :

— انتظر برهة .. سأرجع حالاً

— حسن جدا .

— ٣ —

عاد بجور وأخبر صديقه أن عليه فى خلال نصف ساعة أن يعد العربة ويسرج الخيل ويستعد لحمل سيده إلى المدينة . وأشعل بجور بيبته وأخذ يذرع أرض الغرفة ثم وقف فجأة أمام جيرازيم وقال :

— استمع يابنى ، إذا رغبت فى أن أحدث السيد شاروف عنك فلا بأس

— وهل هو فى حاجة إلى خادم ؟

— لدينا خادم غير كفء . تقدم به العمر ومن المتعذر عليه القيام بالخدمة . ومن حسن الحظ أن هذه الضاحية غير مأهولة — كما أن رجال البوليس لا يدققون كثيرا ، وإلا لم يمكن الخادم الشيخ أن يحتفظ بالمكان على حالة من النظافة ترضيهم

— آه .. لو أمكنك ، حدثه عنى يابجور — إنى سأدعو لك طول حياتى .. لم أعد احتمل العيش بدون عمل

— حسن . سأحدثه عنك . تعال غدا . والآن يحسن أن تأخذ هذه الدريهمات

— شكرا يابجور . هل ستحدثه عنى ؟ قم بهذا الجميل من أجلى

— حسن . سأحاول

وانصرف جيرازيم وأعد بجور العربة وارتدى ملابسه الخاصة بمهنته وقاد العربة إلى الباب الرئيسى للمنزل حيث ركب شاروف ، ثم انطلقت به الخيول إلى المدينة وهناك أدى مهمته ثم آب إلى منزله . ولاحظ بجور أن سيده على شىء من البشاشة فبدأ حديثه معه :

— هل لى أن أسألك معروفاً ؟

— وماذا تطلب ؟

— شاب من قريتى ، شاب طيب ...

ليس لديه عمل

— حسن !

— ألا تلحقه بخدمتك ؟

— وهل أنا فى حاجة إلى خادم ؟

— ألحقه على أن يقوم بأية خدمة تطلب منه

— وما ذا يعمل بوليكار ؟

— وما فائدة بوليكار ؟ ؟ لقد حان أوان فصله

— ليس من العدل فصله . لقد خدمنا عدة سنوات . فلا أستطيع طرده بدون سبب

— ولنفرض أنه اشتغل بخدمتك سنوات ، إنه لم يخدمك بغير أجر . لقد كان يتناول مرتباً ، ومن المؤكد أنه ادخر بعض المال لسنى شيخوخته

— ادخر ؟ كيف كان يمكنه ذلك ، إنه ليس وحيداً فى الدنيا : لديه زوجة يعولها وهذه مضطرة أن تأكل وتشرب أيضاً

— إن زوجته تكسب أيضاً . إنها أجيرة باليومية . ولم تعير بوليكار وزوجته اهتماماً ؟ حقاً إنه خادم فقير . ولكن لم تبعثر أموالك ؟ إنه لا يؤدى عمله كما يجب . وعندما تحين نوبته فى حراسة المنزل يترك مكان الحراسة أكثر من عشر مرات أثناء الليل . لم يعد يحتمل البرد وقد يكدرك البوليس بسببه يوماً . قد يهبط المفتش علينا يوماً ، وعندئذ لن يسرك أن تكون مسئولا عن نتائج إهمال بوليكار

— ومع ذلك ففصله قسوة واستهتار . لقد خدمنا خمسة عشر عاماً ، وبعد هذه المدة نعامله هذه المعاملة الفظة فى شيخوخته ... إنها لخطيئة

— خطيئة ؟ هل يصيبه منك ضرر ؟ إنه لن يموت جوعاً بل سيذهب إلى ملجأ الفقراء . وهذا أجدى عليه . هناك يقضى شيخوخته فى سلام

وأخذ شاروف يفكر فى المشكلة ثم قال :

— حسن . دع صديقك يحضر هنا . وسأرى ما يمكنى أن أفعل له

— أرجو يا مولاى أن تلحقه بخدمتك . كم أنا حزين له ! يا له من شاب خَيِّر ! ومع ذلك فهو عاطل منذ أمد طويل . إنه سيؤدي واجبه على أكمل وجه وسيخدمك باخلاص . لقد ترك عمله الأول بسبب الخدمة العسكرية ولولا ذلك ما تركه مخدومه الأول

— ٤ —

عاد جيرازيم فى المساء التالى وسأل صديقه :

— هل أمكنك أن تقوم بشىء فى سبيلى ؟

— نعم ... على ما أعتقد . دعنا نتناول بعض الشاى أولا ، وبعد ذلك نذهب لمقابلة سيدى

ولم يكن جيرازيم بالراغب فى شرب الشاى . لقد كان متشوقاً إلى معرفة ما قر عليه أمره ولكن مقتضيات الواجب واللياقة نحو صديقه أجبرته أن يشرب قدحين من الشاي ، أخذه بعدها صديقه إلى رب الدار

وسأل شاروف جيرازيم عن مكان سكنه وعن مخدوميه السابقين ، ثم أخبره بعد ذلك باستعداده لقبوله خادماً عاماً يؤدى كل ما يطلب منه وأن عليه أن يأتى صباح اليوم التالى ليبتدئ عمله . وأذهل جيرازيم هذا الحظ المفاجئ وكان فرحه عظيما حتى أن قدميه لم تقويا على حمله ، وبعد برهة رجع جيرازيم إلى غرفة الحوذى

وقال له الحوذى : « حسن يابنى . يجب أن تعنى بأن تؤدى واجبك على الوجه الأكمل حتى لا أضطر يوما إلى الخجل بسببك . أنت تعرف من هم السادة إذا قصرت مرة تعقبوك دائما بالبحث عن أغلاطك ولن يدعوك فى سلام أبدا

— كن مطمئنا يابجور

وانصرف جيرازيم وعبر فى طريقه فناء المنزل ،

وكانت غرفة بوليكار تطل على هذا الفناء وكان ينبعث منها نور ضئيل يضيء طريق جيرازيم الذى شعر بالشوق إلى رؤية الغرفة التى ستخصص له، ولكن زجاج النافذة كان مغطى بالصقيع بحيث يتعذر رؤية أي شيء خلاله . وسمع جيرازيم أصواتا تنبعث من الغرفة فوقف يتسمع . سمع صوتا نسائياً يقول « ماذا نفعل الآن ؟ » فأجاب رجل — وكان بوليكار لا شك :

— لست أدري .. لست أدري، نطوف الشوارع مستجدين .

— هذا كل ما بقى لنا . وما من حيلة أخرى . يالله لنا، نحن الفقراء ! أى حياة تعسة نحياها؟ نكد ونكدح من الصباح الباكر حتى الليل يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، وعند ما تتقدم بنا السن نتضور جوعا

— ماذا نفعل؟ إن سيدنا ليس من طبقتنا، ولا جدوى فى الذهاب والتحدث إليه . إنه لا يهتم إلا بمصلحته

— كل السادة على مثل هذه الحقارة . إنهم لا يهتمون إلا بأنفسهم ، لا يخطر ببالهم أننا نعمل بشرف وإخلاص مدى سنوات ، نفنى زهرة قوانا فى القيام بخدمتهم ثم يخشون أن يبقونا عاماً آخر ، حتى ولو كانت لدينا القوة للقيام بواجباتهم . فاذا عجزنا تماماً وجب علينا أن ننصرف من تلقاء أنفسنا

— إن شاروف لا يلام بقدر ما يلام حوذيه الذى يود الحصول على مهنة لصديقه

— نعم ... يا له من ثعبان ! إنه يعرف كيف يشقشق بلسانه ... وأنت يا بجور أيها الحيوان القذر اللسان ... انتظر ، سأنتقم منك ، إنى سأذهب إلى السيد وأخبره كيف كان هذا الوغد ينشه وكيف يسرق التبن والعلف . وسأقنع السيد أن هذا الوغد يكذب فى كل ما ينقله عنا

— لا لا . أيتها المرأة لا ترتكبى خطيئة

— أية خطيئة ؟ أو ليس حقاً ما أقوله ؟ إننى أعرف صدق ما سأتحدث به وسأفضى بكل شيء للسيد . ولم لا ؟ ماذا نفعل الآن ؟ أين نذهب ؟ لقد حطمنا، لقد حطمنا، وانفجرت المرأة باكية متأوهة

سمع جيرازيم الحديث كله وكأن خنجرا نفذ فى أوصاله . لقد تحقق أى بلاء كان يجره الى هذين الشيخين وشعر أن قلبه يتمزق

وقف حيث كان زمنا طويلا محزوناً غارقاً فى الفكر ، ثم دار على عقبيه وذهب ثانية إلى غرفة الحوذى الذى سأله عندما رآه

— هل نسيت شيئاً ؟

وأجاب جيرازيم متلعثما : لا ... لقد أتيت ... استمع إلىّ ... أود أن أشكرك كثيراً على حسن استقبالك إياى ، وكل ما عانيته من أجلى .. ولكني لا أقبل العمل هنا

— ماذا ؟ ماذا تعنى ؟

— لا شيء . لا أرغب فى العمل هنا . سأبحث عن عمل آخر . وانتابت بجور حدة غضب وقال :

— هل تعنى أن تجعلنى مجنوناً فى رأى سيدى؟ هل تعنى ذلك أيها الأبله؟ لقد أتيت تتضرع فى وداعة وترجو المساعدة . والآن ترفض العمل . أيها الوغد لقد أخزيتنى !

وصعد الدم إلى وجه جيرازيم وخفض عينيه ولكنه لم ينبس ببنت شفة

وأدار بجور ظهره فى احتقار وكف عن الكلام

وعندئذ التقط جيرازيم قبعته بهدوء وترك غرفة الحوذى وعبر الفناء مسرعاً ثم اجتاز باب المنزل وابتعد عن الدار مهرولاً

وكان يشعر بالسعادة والفرح ...

نصرى عطا الله سرى